النخلة فى الشعر العربى

الدكتور / حمدى عبد المجيد عبد الرحيم
المدرس بقسم الادب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

النخلة من أعظم الاشجار ، وهى رمز من الرموز البارزة فى الصحراء العربية ، ووجدت فى كثير من أماكنها ، لانها تقاوم العطش ، ولا تحتاج الا للقليل من الماء ، ويزداد النخيل ويكثر حيث يكثر الماء .

وللنخلة أهمية كبرى فى حياة العربى ، فهو ينتفع بثمرها وخشبها ، وخوصها ، وجريدها ، وليفها ، ويستظل بظلها من لفح الشمس . ولها كثير من الفوائد الاخرى فضلا عن كونها زينة للناظرين .

وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم عشرين مرة(١) ، ومن هذه الآيات قول الله تعالى : « فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام »(٢) يقول

---

(١) فى البقرة الآية ٢٦٦ ، والأنعام الآيتين ٩٩ ، ١٤١ ، والنحل الآيتين ١١ ، ٦٧ ، والاسراء الآية ٩١ ، والكهف الآية ٣٢ ، ومريم الآيتين ٢٣ ، ٢٥ ، وطه الآية ٧١ ، والمؤمنون الآية ١٩ ، والشعراء الآية ١٤٨ ويس الآية ٣٤ ، وق الآية ١٠ ، والرحمن الآيتين ١١ ، ٦٨ ، الحاقة الآية ٧ وعبس الآية ٢٩ ، والرعد الآية ٤ ، والقمر الآية ٢٠ .

(٢) سورة الرحمن الآية ١١ .

الامام الفخر الرازى فى تفسيرها « النخل وحدها نعمة عظيمة تعلقت بها منافع كثيرة ، وأن شجرة النخل بالنسبة الى ثمرتها عظيمة وفيها من الفوائد الكثيرة...فمنها الانتفاع بجمارها ، وبالطبع ، وبالبسر، والرطب، وغير ذلك ، فثمرتها فى أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهى أتم نعمة بالنسبة الى غيرها من الاشجار . والاكمام جمع كم ، ويدخل فيه ليفها ، ونواها ، والكل منتفع به ، كما أن النخل منتفع بها وأغصانها وقلبها »(٣) ويكفى أن الله سبحانه وتعالى أمر مريم حين جاءها المخاض وولدت المسيح عليه السلام بأن تهز النخلة وتأكل منها فى قوله « وهزى اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا »(٤) ولولا فائدتها العظمى لما جعلها طعاما لمريم فى ذلك الوقت لانه أعلم بمخلوقاته وأعلم بما ينفعهم .

ووردت آيات أخرى لم تذكر فيها النخلة بلفظها كقوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها »(*) . قال ابن عباس الكلمة الطيبة هى قول لا اله الا الله والشجرة الطيبة هى النخلة(٥) فكما أن قول لا اله الا الله سيد الكلام كذلك النخلة سيدة الشجر ، وهذه الشجرة موصوفة بصفات حسنة شبه الكلمة الطيبة بها لكونها طيبة المنظر والصورة والشكل والرائحة والثمر وطيبة بحسب المنفعة »(٦) والرسول ﷺ قال : « من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة

---

(٣) التفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ٩ ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٤) سورة ابراهيم الآيتان ٢٤ ز ، ٢٥ .

(*) سورة مريم الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .

(٥) التفسير الكبير الجامع للامام الفخر الرازى جـ ٢٠ ، ص ٢٠ ، ١٢٠

(٦) راجع التفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ٢ ص ١١٦ .

لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر »(٧) وقال رسول الله ﷺ : « ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وانها مثل المسلم ، فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى • قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال هى النخلة(٨) •

وعن الشعبى قال : « كتب قيصر الى عمر بن الخطاب أن رسلى أخبرونى أن بأرضك شجرة كالرجل القائم تفلق عن مثل آذان الحمر ، ثم يصير مثل اللؤلؤ ، ثم يعود كالزمرد الاخضر ثم يصير كالياقوت الاحمر والاصفر ، ثم يرطب فيكون كأطيب فالوذ(٩) اتخذ ، ثم يجف فيكون عصمة للمقيم ، وزادا للمسافر فان كان رسلى صدقونى فهى الشجرة التى نبتت على مريم بنت عمران • فكتب اليه عمر : ان رسلك صدقوك وهى شجرة مريم • فاتق الله ولا تتخذ عيسى الها من دون الله»(١٠) •

وللنخلة وثمرتها فوائد طبية تحدث عنها كثير من الاطباء فالجمار والبلح مثلا قال الشيخ ابن سينا : « الجمار ينفع فى خشونة الحلق ، ويقبض الاسهال والنزف وينفع من لسع الزنبور ضمادا • والبلح يفرز البول واذا شرب بخل منع سيلان الرحم ، ونزف البواسير »(١١) الى غير ذلك من الفوائد التى تحدث عنها الاطباء •

---

(٧) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٠٤ مطابع الشعب •

(٨) صحيح البخارى ج ١ ص ٢٣ ط الشعب •

(٩) الفالوذ : نوع من الحلوى يتخذ اما من العسل والنشا أو من السكر

(١٠) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ •

(١١) نهاية الأرب للنويرى ج ١١ •

ولاهمية شجر النخل عند العرب كانوا اذا غلب قوم قوما أحرقوا نخلهم ، فيصير كنساء قائمات فى مأتم قد لبسن الحداد على حد تصوير الاعشى فى قــوله :

وأيــام حجــر اذ يحــــرق نخــله
ثأرناكــم يومــا بتحــريق أرقـــم
كأن نخيــل الشـــط غب حريقـــه
مآتم ســود سلبت عنــد مأتم(١٢)

وذلك كان يدفعهم الى المحافظة على النخيل حتى لا يلحقهم الاذى والضر ، فدافعوا عنــه بسيوفهم وحموه بكل ما يملكون من وســائل الحماية ، وقاموا بحراسته رغبة فى الاستفادة منه يقول امرؤ القيس :

حمتــه بنو الربــداء من آل يامــن
بأســيافهم حتى أقــر وأوقرا(١٣)

وكانت المواطن المليئة بالنخيل والزروع مدعاة للفخر ، لانها تمثل أساس الحياة الاقتصادية التى تمكنهم من التفوق والسيادة والبقاء . استمع الى الاعشى وهو يفخر بقوله :

ألم تر أن العــرض أصــبح بطنهــا
نخيــلا وزرعــا ثابتــا وفصافصــا(١٤)

---

(١٢) ديوان الأعشى ص ١٦٣ .

(١٣) ديوان امرىء القيس ص ٥٧ ، بنو الربداء : قوم من الحبشة ، وأوقر : حمــل .

(١٤) ديوان الأعشى ص ١٩٥ . الفصافص : جمع فصفصــة : القت أو رطب القت .

(١٤) المكرعات : النخيل المغروسات فى المــاء .

وعلى الرغم من أهمية النخلة عند العرب ودفاعهم عنها وفخرهم بها الا أننى لم أجد شاعرا من شعراء الجاهلية أفرد لها قصيدة مستقلة ولكن من خلال مطالعاتى لكتب الشعر الجاهلى ودواوين الشعراء فى الجاهلية وجدت أن الحديث عن النخلة يأتى اذا كان لها صلة بموضوع آخر كالفخر أو الوصف أو المدح ، أو غير ذلك من الاغراض الشعرية الاخرى ، وهذه الابيات التى تأتى مع الاغراض الاخرى كان الشاعر يستمد من النخيل وثمرها قدرة على عقد بعض المشابهات • فكان شكلها المتناسق وتجمع سعفها وقد توسطته العذوق والشماريخ مجالا من مجالات التذكير بالظعون والهوادج استمع الى امرىء القيس :

بعينى ظعن الحى لما تحملوا
لدى جانب الافلاج من جنب تيمرا

فشبهتهم فى الآل لما تكمشوا
حدائق دوم أو سفينا مغيرا

أو المكرعات من نخيل ابن يامن
دوين الصفا اللائى يلين المشقرا(١٤)

سوامق جبار أثث فروعه
وعالين قنوانا من البسر أحمرا(١٥)

حمته بنو الريداء من آل يامن
بأسيافهم حتى أقر وأوقرا(١٦)

---

(١٥) سوامق : من وصف النخل وهى المرتفعات الطوال ، والجبار : الذى فات اليد ، والأثيث : الغزير ، والقنوان : العزوق ، والبسر : ماأحمر من الثمر •

(١٦) بنو الربداء قوم من الحبشة ، وأوقر : حمل •

وأرضى بنى الريداء واعتم زهوه
وأكمامه حتى اذا ما تهصرا(١٧)

أطافت به جبلان عند قطاعه
تردد فيه العين حتى تحيرا(١٨)

بعد أن يتحدث الشاعر عن حزنه لفراق الاحبة ومتابعته لهم بنظره ، وانتقالهم الى الافلاج ، وتيمروهما موضعان شبههم بحدائق الدوم لما فى الهوادج من الالوان المختلفة • والدوم يطول ، ويرتفع فى السماء كالنخيل ، شبههم أيضا بالسفن لمسيرهم فى السراب كسير السفن فى الماء انتقل بعد ذلك الى تشبيههم بالمكرعات وهى النخيل المغروسات فى الماء ، وهى أنعم النخيل وأطولها • أراد اختلاف الهوادج فى الالوان مع علوها وارتفاعها • وآل يامن : قوم من هجر لهم نخيل كثير وسفن ولذلك خص التشبيه بنخيلها القريب من قصرى الصفا والمشقر بناحية اليمامة هذا النخيل مرتفع جدا قد فات اليد ، لطوله وهو غزير الفروع • وقصد أن يشبه ما على الهوادج من الصوف الاحمر الاصفر مع ارتفاعها بهذه النخيل الطوال ، وما فيها من اختلاف الالوان • وهذا النخيل كما حمله وحسن مظهره ، فمنعه آهله من أن يصل اليه أحد وقد رضوا عنه عندما تم ، وتثنى وتدلى وحينئذ استعان أصحابه ببنى جبيلان ، ليصرموا لهم التمر • وقد كان هذا النخل لحسن منظره والاعجاب به تتردد فيه العين حتى تكل وتتحير وهنا

---

(١٧) اعتم : كمل وتم ، والزهو : الأحمر والأصفر من الثمر،والاكمام: أغلفة الطلع وتصهر : انثنى وتدلى •

(١٨) ديوان امرىء القيس ص ٥٦ ، ٥٧ ، بنو جبلان : قوم اتخذهم كسرى عمالا بجانب البحرين ليصرموا له النخل •

نلحظ أنه جمع ثلاث تشبيهات شبه بالدوم ، وشبه بالسفينة ، وشبه بالنخلة • ولكنه أسهب فى ذكر النخلة ، ولم يعط الدوم والسفينة مثلما اعطى النخلة فأكثر الابيات انصبت على النخلة وهذا دليل على أن لها أهمية قصوى فى حياتهم •

ويصف امرؤ القيس هوادج أحبائه ، ويشبه ما عليها من ألوان الوشى بألوان الثمر الاحمر والاصفر مع خضرة النخل فيقول :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن
سوالك نقبا بن حزمى شعبعب(٢٠)
علون بأنطاكية فوق عقمة
كجرمة نخل أو كجنة يثرب(٢١)

وهنا يطلب من صديقه أن ينظر معه على عادة الشعراء العرب فى الجاهلة حين كانوا يخاطبون الواحد أو الاثنين ويخاطبة هل رأى الظعائن وهن يسلكن المكان القريب من اليمامة فى هوادج تشبه ألوان التمر المختلفة •

وقريب من قول امرىء القيس يصف الاعشى رحيل الاحباب داخل ما يركبون بنخل ابن يامن العالى المشهور بارتفاعه فيقول :

وشاقتك أظعان لزينب غدوة
تحملن حتى كادت الشمس تغرب

---

(٢٠) النقب : الطريق فى الجبل ، والحزم : المكان الغليظ ، وشعبعب: ماء فى اليمامة •

(٢١) ديوان امرىء القيس ص ٩٥ بأنطاكية : أى ثياب مصنوعة بأنطاكية ، والعقمة ضرب من الوشى الأحمر ، والجرمة : ما صرم من النخل وصار فى الأرض •

فلما استقلت قلت نخـل ابن يامن
أهـن أم اللاتى تربت يترب(٢٣)

طـريق وحبـار رواء أصـوله
عليـه أبابيل من الطير تنعب(٢٤)

وهو هنا يشير الى الطير الذى يشاركه مشاعره فينعب وهو واقف على النخيل مثل الشاعر الذى يتألم لفراق هؤلاء الاحبة ، وشبه الشعراء الخيل بها ، لطولها وارتفاعها فهذا عبيد بن الابرص يخاطب امرأ القيس بعد أن قتل بنو أسد أباه حجرا فتوعدهم امرؤ القيس بقوله :

والله لا يذهب شيخى باطلا حتى أبيد مالكا وكاهلا(٢٥)

وقال له عبيد قصيدة يهزأ من وعيده ، ويصف مقتل أبيه ويفخر بقومه مشيرا الى خيلهم الطويلة التى تشبه النخيل المرتفعة التى نأت عن الجرام فلا يستطيعون أن يصلوا الى ثمرها :

حجـر غـداة تعاورتـه رماحنـا
بالقـاع بين صفاصف واكـام(٢٦)

---

(٢٢) ابن يامن : مشهورة بنخله الطويل الغزير ، وتربت ترب ويترب: يغنى ويفتقر (ضد) .

(٢٤) ديوان الأعشى ص ١٠ .

(٢٥) مالك وكهلان : حيان من بنى أسد .

(٢٦) تعـاورته : تعاطتـه وتداولته ، والقـاع : ما ملس من الأرض واستوى ، والصفاصف : جمع صفصف وهو المستوى من الأرض لا نبت فيه ، والأكام : جمع أكمه : وهى المرتفع من الأرض لم يبلغ أن يكون جبلا .

والخيـــل عاكفـــة عليـــه كأنهـــا
سحق النخيل نأت عن الجـرام(٢٧)

وهنا ذكرته هـذه الخيل بصورة النخلة الشامخة الطويلة ، فاتخذ من هذه المقارنة وسيلة للفخر والمباهاه .

ولم يكن تشبههم للفرس بالنخلة مكتملة فحسب ، وانما شـبهوا ببعض أجزائها ، فامروء القيس شبه شعر ناصية فرسته بسعف النخلة المنتشر المتفرق :

وأركب فى الروع خيفانـة كسا وجهها سعف منتشر(٢٨)

ويشبه عبيد بن الابرص قوائم فرسه بجريدة النخل فيقول :

خلقت على عسـب وتم زكاؤها وأحال فيها الصنع غير نحيس(٢٩)

وشبهوا شـعر المرأة فى طوله وتداخله وغزارته بشماريخ النخلة كقول امرىء القيس :

وفرع يزين المتن أسـود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل(٣٠)

---

(٢٧) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٢ ، ١٢٣ . وعاكفة : العاكفة الملازمة والسحق : الطوال من النخل ، والجرام : الذين يجنون ثمارها .

(٢٨) الروع : الفزع،والخيفانة : الفرس السريعة والخفيفة،والخيفانة فى الأصل الجرادة شبهها بها فى خفتها « ديوان امرىء القيس » ص ١٦٣

(٢٩) ديوان ابن الأبرص ص ٦٩ ، عسب : جريد النخل ، وذكاؤها : أى سنها ، وأحال : أتي عليه الحول .

(٣٠) ديوان امرىء القيس ص ٤٤ ، فرع : شـعر تام أو طـويل ، والفاحم : الشـديد السواد ، والأثبت : الغـزير ، والقنو : العـذق ، والمتعثكل : المتداخل .

فامرؤ القيس هنا يتغزل فى محبوبته ، ويصف شعرها فى التوائه وغزارته بعذق النخلة المتداخل .

ويقول امرؤ القيس واصفا شعرها بشماريخ النخلة :

فلما تنازعنا الحديث واسمحت، هصرت بغصن ذى شماريخ ميال(٣١)

لعل فيما سبق من نماذج لشعراء جاهليين يتضح أنهم شبهوا بالنخلة فى مجالات مختلفة فى مجال التذكير بالظعون والهوادج وهى تشق الصحراء ، وفى مجال الافتخار بالابل التامة الخلق الطويلة ، أو فى مجال تشبيه بعض أعضاء الابل ، أو حتى فى الغزل والحديث عن شعر المرأة ومعروف أن المشبه به أقوى من المشبه مما يدل على اهتمامهم بالنخلة وأنها أتم وأوضح فى هذه الصورة من المشبه عندهم فاذا شبه كانت تشبيهاته حسية يحاول فيها ابقاء جواهر الموضوعات على حالها دون تغيير ، أو تبديل تدرك لاول وهلة ، وهذا أمر طبيعى بالنسبة له ، لنشوئه فى بيئة صحراوية « ومعروف أن العربى الجاهلى كان ساذجا ينزع نزعة مادية خالصة ومن هنا كان وصفه مقارنا بما تهيأ له من الصور والتشبيهات التى وقعت تحت حسه »(٣٢) .

وكان حديث الشاعر الجاهلى فى النماذج السابقة حديثا عن مظاهر وقعت تحت نظره ، وكانت المقارنات من أكثر الادلة على واقعيته ، لان هذه المقارنة لا تتهيأ الا لمن خبر الصلة فى مقارنته بين طرفى

---

(٣١) ديوان امرىء القيس ص ١٤١ الغصن : أراد جسمها . وهصرت جذبت ومددت .

(٣٢) راجع الطبيعة فى الشعر الجاهلى د/ نورى حمودى القيس ص ٣٣٥ وما بعدها .

التشبيه ، وأدرك الصفة فيهما هذا هو ما فعله العربى(٣٣) .

ولم يخاطب النخلة مخاطبة وجدانية ، لانه تعود أن يرى النخلة بصفة دائمة وهى بالنسبة له غذاء وطعام وفائدتها حسية فنظرته اليها نظرة مادية ، وجاءت صورهم مطابقة للواقع مشابهة له واستغلال ظاهرة الالوان عندهم كانت تمنح الصورة قدرة أكثر على التعبير عن الجوانب الدقيقة الظاهرة أمامه .

واذا ما انتقلنا الى أبى نواس الذى عاش فى القرن الثانى الهجرى فاننا نجده نظر الى النخلة نظرة ذاتية وهى كونها تنتج له الخمرة ، فوصفه لها من الزاوية التى يميل اليها وهى الخمر ، وقد كان وصفه لها رائعا حيث صور النخل تحف به الطبيعة بمختلف حيواناتها وجواهرها ، وكواكبها ، وهو بهذا يربط بين سماء الطبيعة وما يوجد على أرضها من حيوان ونبات وجماد فى لوحة فنية جميلة من الوجهه الفنيه استمع اليه وهو يقول :

لنا خمر وليس بخمر نحل
ولكن من نتاج الباسقات(٣٤)

كرائم فى السماء زهين طولا
فتنات ثمارها أيدى الجناة(٣٥)

---

(٣٣) راجع الطبيعة في الشعر الجاهلى د/ نورى حمودى القيس ص ٣٣٥ وما بعدها .

(٣٤) الباسقات : النخيلات الطوال .

(٣٥) زهين الزهو : وهو المنظر الحسن أو الكبر .

قلائص فى الرؤوس لهـا ضـروع
تدر على أكـف الحـاليـات(٣٦)

صـحائح لا تعـد ولا تراهـا
عجافا فى السـنين المـاحلات(٣٧)

فحين بدا لـك السرطـان يتلـو
كـواكب كالنعـاج الراتعـات(٣٨)

بدا بيـن الذوائـب فـى ذراهـا
نبـات كالاكـف الطـالعـات

فشـقت الاكف فخـلت فيهـا
لآلىء فى السـلوك منظمـات(٣٩)

فهذه الخمر من النخل الطـويل الكريم الذى لا يستطيع جامعو الثمار أن يصلوا اليه لارتفاعه وهى تشـبيه الحيوانات التى تدر اللبن أو كالنبات المشـابه للاكف التى تبدو لآلىء منظومة فى أسـلاك ، وهى لا تمنـع خيراتها عن أصحابها ، وكونها تدر اللبن فهى تعطى الحيـاة ، والخبرة بالنسبة لأبى نواس هى الحياة ، وتشبيهها بالاكف بين قيمتهـا عنده ، وهذا دليل على حبه لخمر النخل ، ونظرته الى النخلة نظرة خاصة لانها مصدر من مصادر الامتاع لديه .

---

(٣٦) القلائص : القلوص الناقة الشابة ، وتدر : يتدفق منهـا الدر وهو اللبن الشبه به والبلح فى المشبه .

(٣٧) لا تعد : تشير الى كثرتها ، وعجافا : مهزولات ويريد لا يثمرن .

(٣٨) السرطـان : من بزوخ السـماء ويكون فى الصـيف . ديوان أبى نواس ص ٢٠٩ .

(٣٩) نفح الطيب ص ٥٤ .

واذا كان الشاعر اهتم بقدر خمر النخيل فى تلك القصيدة فمرجع ذلك الى ميوله الشخصية تجاه النوع الذى يرغبه ، أو الى جو الشراب الذى يحبب كل حال الى صاحبه •

فالنخل وثمرها عند أبى نواس صاحب المجون والشراب قد اصطبغت بمصبغة الخمر المحبب الى نفسه ، وكان الخمر سببا فى عنايته بوصف النخل ولا تعجب لذلك فهو القائل عن الخمر :

وداونى بالتى كانت هى الداء

وحين فتح العرب الاندلس ، وكانت من أنضر البلاد وأبهاها تبدو كروضة كبيرة يجرى فيها الماء وترتفع الجبال الخضراء وكانت طبيعتها جميلة جذابة ولكن هذا الجمال وتلك الجاذبية لم تفتن بعض الفاتحين فقد رأى عبد الرحمن الداخل نخلة منفرده وحيدة وحينئذ تحركت مشاعره فأنشد يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغريب والنوى
وطول الثنائى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنأى مثلى(٣٩)

فعبد الرحمن الداخل أحس بالوحدة والغربة بعيدا عن الوطن الاصلى فنظر الى النخلة نظرة وجدانية تعكس ما فى داخله فهى وحيدة غريبة تشبه حاله ، وقريب من هذا الموقف موقف مسلم بن الوليد عندما حضرته الوفاة وهو بجرجان وقد نظر الى نخله بالقرب منه

وكانت النخلة تشبه نخل الجزيرة العربية المألوف فحس نحوها بآلفة روحية وكانها وقفت لتشاركه آلام غربته فراح يخاطبها قائلا :

ألا يا نخلة بالسفح من أكناف جرجان
ألا انى وإياك بجرجان غريبان(٤٠)

أما أحمد شوقى أمير الشعراء الذى عاش فى القصر وكانت حياته حياة ترف ونعيم فنظر الى النخلة نظرة موضوعية ، فالنخلة عنده فوائدها كثيرة فيها الغذاء وفيها الفاكهة ، فضلا عن كونها زينة للناظرين. استمع اليه وهو يقول عن النخلة التى أفرد لها موضوعا مستقلا فى ديوانه الشوقيات :

أرى شجرا فى السماء احتجب
وشق العنان بمرأى عجب(٤١)
مآذن قامت هنا وهناك
ظواهرها درج من شذب(٤٢)
وليس يؤذن فيها الرجال
ولكن تصيح عليها الغرب(٤٣)
وباسقة من بنات الرمال
نمت وربت فى ظلال الكثب(٤٤)

---

(٤٠)
(٤١) احتجب : اختفى ، والعنان:السحاب والمراد هنا الجو أو القضاء
(٤٢) شذب : قشور ، درج : جمع درجة وهى المرقاه .
(٤٣) الغرب : جمع غراب .
(٤٤) باسقة : مرتفعة أو عالية وبنات الرمال : المراد النخيل وربت : نمت ، والكثب جمع كثيب وهو ما ارتفع عن الأرض .

كســـارية الفنـــك أو كالمســـلة
أو كالفنـــار وراء العبـــب(٤٥)

تطـول وتقصـر خـلف الكثيـب
اذا الريـح جـاء بهـا أو ذهـب

تخـال اذا اتقـدت فى الضـحى
وجـر الاصـيل عليهـا اللهب(٤٦)

وطـاف عليهـا شـعاع النهـار
من الصـحو أو من حواشى السحب

وصـيغة فرعـون فى سـاحة
مـن القصـر واقفـة ترتقـب

فى اعتصـبت بفصـوص العقيـق
مفصـلة بشـذور الذهـب(٤٧)

ونـاطت قـلائـد مرجـانهـا
على الصـدر واتشحت بالقصب(٤٧)

وشـدت على سـاقها مئـزرا
تقصـر مـن رأسـها المذنـب

---

(٤٥) العبب : جمع عباب وهو موج البحر .

(٤٦) اتقدت : اشتعلت .

(٤٧) المعتصب : شدت العصابة على رأسها ويريد أنها تزينت بالبلخ فى حمرته كأنه فصـوص من العقيق والعقيـق حجـر كريم لونه أحمـر . وشذور : قطع ، وقلائد : عقود .

(٤٧م) واتشحت : لبست الوشـاح وهو خيطـان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما وينطوى أحدهما على الآخر .

أهـذا هـو النخـل ملك الرياض
أمير الحقـول عروس العزب(٤٨)

فى هذه الابيات نجد الشاعر أحمد شوقى أعجب بمنظـر النخـل وطولها وكأنها مآذن انتشرت فى كل مكان ، ولها أدراج من السـلالم على قشرتها الخارجية ولكن لا يؤذن عليها المؤذنون وانما تصيح فوقها الغـربان .

وهى مرتفعة تنمو عادة فى الرمال ، وتتردهر فى ظـلال الكثبان تشبه سارية السفينة من مسافة بعيدة أو المسـلة الفرعونية العالية ، أو الفنار على الميناء يهدى السفن من مسافة بعيدة فى البحر .

اذا هبت عليها الرياح فانها تبدو للناظر خلف الكثبان كأنها تطول وتقصر ، وعندما تسقط عليها أشـعة الشمس فى الضحى ، أو تسحب الشمس عليها أشعتها الصـفراء وقت الاصيل ، أو يطوف عليها شعاع من ضوء النهار عندما يكون الجو صحوا ، أو من خلال جوانب السحب العالية يخيل اليك أنها وصيفة أحد ملوك الفراعنة تقف فى ساحه قصره مترقبة تستجيب لمـا يطلبه ، وقد عصبت رأسـها بغصوص حمراء من العقيق وهو بلحها الاحمر المتعلق بفروعها الصـفراء التى تبدو كفروع الذهب ، وقد تزينت بأحلى الملابس كزينة الوصيفة التى ارتدت عقـود المرجان على الصدر ، وانتشحت بالجواهر من أولها الى آخرها ، ويتسائل فى استفهام تقريرى أهذا هو النخل ملك الرياض وأمير الحقول وعروس العـزب ؟

---

(٤٨) الشوقيات ص ٦٤ .

وينتقل بعد ذلك الوصف المستفيض للنخلة الى الحديث عن فوائدها مبينا أنها صاحبة الفوائد الكثيرة ، فهى طعام الفقير وفاكهة الغنى ، وزاد المسافر والغريب عن دياره فهى لا تبخل بثمارها على الناس فى أى تربة نمت ، ويعجب كيف أغفل الكتاب النخلة وخلت الكتب والقصائد من وصفها وهى صاحبة تلك الفوائد الى جانب الفوائد الأخرى ، فهى تحمينا من حرارة الشمس وكأن أغلى النخيل القبب يمتد ظلها استمع اليه وهو يقول :

طعام الفقير وحلوى الغنى
وزاد المسافر والمغترب

فيانخلة الرمل لم تبخلى
ولا قصرت نخلات الترب(٤٩)

وأعجب كيف طوى ذكركن
ولم يحتفل شعراء العرب(٥٠)

أليس حراما خلو القصا
ئد من وصفكن وعطل الكتب(٥١)

وأنتن فى الهاجرات الظلال
كأن أعالكن القبب(٥٢)

---

(٤٩) الترب : جمع تربة : التراب وطبيعة الأرض .
(٥٠) طوى ذكركن : أغفله وأهمله .
(٥١) عطل الكتب : خلوها .
(٥٢) الشوقيات ص ٦٥ ، الهاجرات : أوقات الحر الشديد ، والقبب : جمع قبة والقبة بناء مستدير مقوس مجوف .

وبعد ذلك يشـــير الى فائدتها فى الصحراء للبدوى حيث تصـــون كالشاة لكثير الاولاد يحلبها حلبا متجددا .

والنخيل زينة فى القصور أو فى ساحتها تزين الارض الواسعة مثل القنب ، وثمارها مثل العنب متعدد المذاق ، وكالشهد حلو الطعم فى جميـــع الاحـــوال :

وأنتن فى البيـــد شـــاة المعـــل
جناها بجانب أخـــرى حلب(٥٣)

وأنتن فى عرصـــات القصـــور
حسان الدمى الزائنات الرحب(٥٤)

جنـــاكن كالكرم شـــتى المـــزاق
وكالشهد فى كل لون يحب(٥٥)

والناظر الى أبيـــات شوقى يلحظ تصويره لارتفاع النخيل بأنـــه وصل الى السماء ، وأنه كالمآذن ، وأنها باسقة وهى كسارية السفينة ، أو كالمسلة أو كالفنار وهذه التشبيهات الاخيرة تدل على أن الشاعر من عصرنا يلتقط مادة صوره من بيئته ، ومما حوله وهى واقفة طوال النهار ، وفى الضحى وفى الاصيل تزينها أشعة الشمس كأنها وصـــيفة لفرعون تتزين بأحلى الجواهر وأجمل الملابس ، ويصورها بأنها ملكة الرياض

---

(٥٣) البيد : جمع بيداء : الصحراء ، والمعيل : من عنده أولاد أو الكثير العيال ، وجناها : ثمرها ، وحب : لبن .

(٥٤) عرصات : جمع عرصه وهى ساحة الدار ، والدمى : جمع دمية وهى الصورة الممثلة من العاج وغيره ، والرحب جمع رحبة وهى الارض الواســـعة .

(٥٥) الشوقيات ص ٦٥ جناكن : ثمركن .

وأنها أميرة وعروس • كذلك شبه أعاليها بالقبب التى تحمى الناس من حرارة الشمس وهى للبدوى كالشاة تمده بحليبها الغزير الدائم وثمرها كالكرم وطعمها كالشهد • وجميعها صور رائعة تعبر عن حياتـه وقربه من الملوك وهو داخل القصور وقد استعمل الالفاظ الملائمة لحياتـه فمثلا استعمل الالقاب التى كانت تستخدم للحكام فى ذلك الوقت مثل ملك وأمير فى قوله ملك الرياض وأمير الحقول • وكذلك العزب التى كانت من ممتلكات الملوك أو الامراء فقال وعروس العزب • كذلك استعمل الالفاظ التى كانت تتداول فى القصور كقوله وصيفة ، وعرصات القصور ، والدمى ، كذلك تناول الجواهر والأحجار الكريمة وهى من أهم الزينات لدى أصحاب القصور مثل قوله بفصوص العقيق ، وشذور الذهب ، وقلائد مرجانها • مما يدل على أن الشاعر تناول النخلة تناولا موضوعيا وصفيا ، تظهر فيه حياته بين القصور وبالقرب من الملوك والباشوات •

وفوزى العنتيل أحس تجاه النخلة احساسا قويا فهى الام الحنون التى يلجأ اليها من متاعب الحياة ، فتمنحه وتعطيه وتبادله المشاعر وفاء منها لابنها الشاعر فلا تخيب له الظن فى زمن كان فيه الاقطاع شحيحا على الفقراء ، وأخذ يبرز تلك العلاقة القائمة على روح الامومة ، والتى يؤكدها هذا التجاوب ، وتلك العاطفة بينهما فى صورة ابن يخاطب أمه يسقط عليها مشاعره ، فترد عليه بشعور أعمق ، ويفكر من خلالها ، ولذا جاء حديثه يجسد العلاقة ، ويوضح صور المودة فى لوحة بارعة ناطقة رقيقة فى انفعال رائع استمع اليه وهو يقول :

هنالك نخلتى السمراء فى السفح تنادينى
تراها تذكر الامس الذى ما زال يدعونى
أوافيها فتضحك لى .. وأسألها فتعطينى ؟

اذا ما جئتها فى الصيف ردت ناره دونى

ومدت ظلها الاخضر ــ ان نمت ــ يغطينى(٥٦)

فالنخلة عنده محبوبة وفيه وأم حنون سخية كوفاء الشاعر لها وحنينه اليها ، وهى معلم رئيسى فى الصورة عنده وتكاد تحتل ركنا فسيحا فى قلب الشاعر اذ يحن الى ماضيه معها ، وهذا شعور عميق بالحب مرجعه ــ كما توحى الابيات ــ الى التجاوب الذى كان يجده الشاعر فى نفسه تجاه النخلة مما يخلق احساسا متبادلا بينهما ، ولعل ذلك التبادل واضح فى قوله : « هنالك نخلتى ... تنادينى ــ ... أوافيها فتضحك لى ولقد ترجمت النخلة هذا الاحساس الى حقيقة مادية ملموسة هى العطاء فى قوله : « أسألها فتعطينى .. اذا ما جئتها فى الصيف ردت ناره دونى .

ومدت ظلها الاخضر ــ ان نمت ــ يغطينى « ويرجع ذلك الى أنه قروى نشأ بين النخيل وفقد أمه فى الطفولة .

وافتتن محمود حسن اسماعيل بالنخلة فأخذ فى تصويرها وتعددت صورها لديه مما جعل الدكتور مهدى علام يقول عنه : « لو كنا نؤرخ لشاعر غير معاصر لايقنا أن لبيئة الشاعر أثرا قويا فى ارسال ذلك الصوت الملح فى تمجيد النخيل ، وكنت على شبه يقين بأن شاعرنا نشأ فى بلدة بكثر نخيله فلما سألته فى ذلك انتقلت ؟ الى اليقين حين أخبرنى أن بلدته اسمها النخيلة »(٥٧) ويقول الشاعر عن نفسه « نشأت فى قرية صغيرة فى أعماق الصعيد اسمها النخيلة ولها من اسمها نصيب

---

(٥٦) عبير الارض ص ٣٧ .

(٥٧) مجلة الثقافة العدد ١٩٧٧ ص ٤٥ .

فيكثر فيها النخل والبساتين المطلة على حافة النهر من الجانب الغربى(٥٨) .

وفى تناوله للنخلة نلحظ أنه يركز على أن يرسم صورا جمالية فى حال سكونها مع صمت الرياح ، ويعكس من خلال النخيل والسواقى التى تدور لتسقى الزرع حزنه على الفلاح الفقير المغلوب على أمره المتمثل فى صورة الثور المستبعد . وأحب أن أشير هنا الى بيتين اثنين عقد فيهما موازنة بين نخل الكوخ ونخل القصر . فقد رأى نخلة الكوخ تعطى الثمر والظل للكوخ والمسافرين فى اهتزاز تعبيرا عن الترحيب والسعادة ، ولعله يقصد كرم أهل الكوخ على الرغم من فقرهم ، وفى مقابل هذه النخلة يشير الى شح نخيل القصر المنيع الموهوب الكاشر الانياب الذى لا يجرؤ أحد على الاقتراب أو الدنو منه وفى هذا أيضا اشارة الى بخل الاقطاعيين ، وانعزالهم وشراستهم وتعاليهم على المجتمع ، وتقصيرهم فى حقه قال يخاطب الكوخ :

ونخلة فوقك تهدى الجنى
والظل يستذرى بها العابر
وتهتز للسارى ونخل الورى
فى القصر مرهوب الحمى كاشر(٥٩)

ولعله اسقاط يعبر فيه الشاعر عن مكنون نفسه لانه كان فقيرا ضعيفا ولا يستطيع أن يعبر عما بداخله تعبيرا مباشرا يهاجم فيه أصحاب القصر خوفا من سطوتهم ، لذلك لجأ الى النخيل يتناولها دون أن يذكر أهل القصر بشر مباشر .

---

(٥٨) شعر محمود حسن اسماعيل د/ هدبه .

(٥٩) أغانى الكوخ ص ١٨ .

أما النخلة عند محمود أبو الوفا فهى قيمة أخلاقية وجمالية ووطنية ممزوجة باطار دينى استمع اليه وهو يقول :

يا نخـــلة القـــاع من قلبى أحييـــك
روحى فداك ، وأهـــلى فدى أهليـــك

رفعـــت رأســـك نحـــو الله مؤمنـــة
أن الســـماء قـــريب من تســـاميك

تدعيـــن ربـــك أم ماذا فأنت كمـــا
أراك نحـــو الســـماء تهتز أيديـــك

شرقية الروح فى استسلامها لبست
ســـلاحها واســـتعدت للمماليـــك

هـــذا هو الحســـن لكن ليس يدركه
الا الاولى أدركـــوا سرار واديك

لكـــن حســـنك روح كـــله كـــرم
وعصـــمة واعتـــزاز جـــل باريـــك

تهب حـــولك هـــوج الريح عاصـــفة
وأنـــت صـــامدة لاشـــىء يثنيـــك

كـــأن عنـــف الليـــالى أو ضراوتهـــا
يزيـــد عـــودك حســـنا أو يقـــويك

كذلـــك قـــومك كانـــوا فى بداوتهم
ولم يزالـــوا وفيهـــم من تعـــاليـــك

ياليت أخـــلاقهم تبقى كمـــا خلقـــت
شرقية الروح لم يشـــبها أى تشريك

فلم يـزل بدوى الطبـع فيـك على
نقائـه أو صـفاه فى بواديـك

يا أخت مريم حسـب النخـل مكرمة
بأن مريـم قـد جـاءت تحاكيـك

تكـلم المهـد فى عيسـى وانطقـه
مبرئـا برهـانـه فيـك

لم تلق مريـم فى عيسـى ومولـده
أحـلى البشـائر الا فى تهانيك(٥٠)

فالشاعر هنا ينظر الى صلابة النخلة مشيرا الى صمود وصـلابه أهلها أهل الشرق ، وينظر الى الصفات البارزة فيها وهى الصفات التى يرجو أن يكون عليها العرب ، تلك الصفات هى الكرم والعصمة والاعتزاز والصمود ، والقوة ، والنقاء .

وهى تظهر فى جو دينى يبدو من خلال عباراته رفعت رأسك نحو الله ، وتدعين ربك ، وتهتز أيديك ويتضـح الفكر الدينى فى تصريحه بأخوة النخلة لمريم وشهادتها ببراءتها وكونها أول من قدم البشرى لها ولا يخفى أن أبا الوفا رأى وجه شبه بين النخلة ومريم جعل فيه النخلة هى الاصـل بينما جاءت مريم محاكية لها وهو العطاء بدون مس من بشر ، ومن هنا كانت الاخرة .

ونلحظ الاداء الدينى من خلال اضافة النخلة الى القاع فى قوله يا نخلة القاع متأثرا بما جاء فى بعض المدائح النبوية ريم على القاع .

---

(٦٠) ديوان أشواق ص ٦٣ .

« وهذه القصيدة قصيدة أبى الوفا ، عن النخلة ترسم صورة النخلة الضارعة المتدينة وقد مال فيها الشاعر الى التصريح بالمعنى عندما راح يحييها ويفديها لانها تحلت بالصلابة والطهر والصفاء والنقاء »(٦١)• وكأن هذه النخلة صورة مشابهة لمصر القوية أو للعرب الشرفاء •

أما الشاعر عبد العزيز عتيق فكان من أكثر الشعراء ذكرا للنخيل كذلك سمى ديوانه « أحلام النخيل » ولا تخلو قصيده من قصائده من ذكر النخيل ، ولكنه لم يستغل النخلة استغلالا فنيا لغايات أخرى كما فعل غيره فلم تعكس النخلة شعورا ذاتيا بالحنين الى النخل ذاته ولم يناج نخلة ولم يوجه اليها خطابا وجملة القول لم يكن هناك تجاوب بينهما فى علاقة أم بوليدها ، أو محب بمحبوبته ، ولم يتعرض لها — حتى بوصف ظاهرى موضوعى كالذى نجده عند غيره من الشعراء الذين تناولوا النخلة ، وهاموا بها بل هو يحكى شعورا ويسجل ذكريات حدثت له يحن اليها بين النخيل وعند أماكنها التى كان فيها اللقاء مع المحبوبة والنخيل يثير فى أعماقه أحاسيس خاصة ترفعه الى أن يتصور نفسه أشياء أخرى تتناسب وحالة الهيام بين الطبيعة كالطائر والجدول وكالعابد »(٦٢) يقول فى قصيدة تحت عنوان « بين النخيل »

أنا بين النخيل كالطائر الحالم فى عشه يطيف فى السعادة
أنا بين النخيل كالجدول الهادىء يمضى فلا يحسن طراده
أنا بين النخيل كالشاعر الخالد قد هام بالجمال هياما
أنا ابن النخيل كالعابد الحسن فلا يستمال عنه لماما(٦٣)

---

(٦١) راجع القرية المصرية والفلاح د/ عبد الحليم أحمد ص ٢٠٤ •
(٦٢) راجع القرية المصرية والفلاح : دكتور/عبد الحليم أحمد ص ٢٠٨•
(٦٣) ديوان : أحلام النخيل ج ٢ ص ٤٩ •

وواضح انه لم يخل بيت من ذكر لفظ النخيل ولكن هـذا النخيل مجرد شجر يلتقى عندها بالمحبوب ومكان يشعر فيه باحاسيس ومشاعر تحرك ما يختلج بخاطره وما يدور بنفسه

وهذا الحكم نستثنى منه بيتا يحمل وصفا مباشرا للنخيل ويشير فيه الى ميله له دون سواه لانه مواطن الذكريات وهذا البيت يقال فيه :

والنخيل الروضى ما بالى الليلة أهفو اليه دون سواه(٦٤)

ولعلنا فيما ذكرناه عن النخيل التى وردت فى الشعر العربى والتى تعرض لها الشعراء نستطيع أن نحكم على مدى انتفاعهم بهذه الشجرة ، واستفادتهم منها ، وميلهم لها ، وباستطاعتنا ادراك أهميتها من خـلال الصـور التى استمدوها منها فى تشبيهاتهم واستعاراتهم ، ووصـفهم ومبادلتهم لها ، أو مبادلتها لهم بالشـعور وما تحمله من أحاسيس فى نظرهم أحاسيس مؤلمـة أو مفرحة ، وذكريات جميلة أو غير ذلك :

وكان اهتمامهم بالثمار فتناولوه تناولا متعددا ، وأعطوا له صورا مختلفـة لذلك ورد فى شـعرهم كثيرا فوصفوا البلح والبسر والتمر ومن ذلك ما قاله ابن وكيع التنسى فى البلح :

أما ترى النخـل طارحـا بلحـا
جـاء بشـيرا بدولـة الرطـب

كأنـه والعيـون تنظـره
اذا بـدا زهـره على القضـب

مكاحـل مـن زمـرد خرطـت
مقمعـات الرؤوس بالذهـب(٦٥)

---

(٦٤) ديوان : أحلام النخيل ص ٥٥ .

(٦٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب للمقريزى جـ ١١ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

وقال عبد الصمد فى البلح أيضا :

كأنه فى ناضر الاغصان زمرد لاح على شيجان(٦٦)

وقال ابن المعتز فى البسر الاصفر :

أما ترى البسر الذى
قد حاز كل العجب
كيف غدا فى لونه
كعاشق مكتئب
مكاحل من فضة
قد طليت بالذهب(٦٧)

ووصف محمد بن شرف القيروانى التمر فقال :

أما ترى التمر يحاكى
فى الحسن للنظار
مخازنا من عقيق
قد نضعت بنضار(٦٨)
كأنما زعفران
فيه مع الشهد جار
تشيف مثل كئوس
مملوءة من عقار(٦٩)

---

(٦٦) المرجع نفسه ص ١٢٧ .

(٦٧) المرجع نفسه ص ١٢٧ .

(٦٨) عقيق : خرز أحمر . نضار : الخالص من كل شىء او المستقيم من الغصون .

(٦٩) نهاية الأرب ص ١٢٨ . عقار : عشبة ثمرها كالبنادق .

فثمار النخلة شيء نفيس عند هؤلاء الشعراء ، ولذلك شبهوه بمعادن أو أحجار كريمة دلالة على قيمته العالية فى نظرهم فهو جميل المنظر حسن الصورة مرتفع القيمة ، فالبلح كأنه مكاحل من زمرد مقمعات الرؤوس بالذهب أو زمرد لاح على نيجان ، والبسر كأنه مكاحل من فضة حليت بالذهب ، والتمر يحكى فى الحسن مخازن من عقيق قد قمعت بنضار ، .... الخ • وهو صورة رائعة جميلة •

وللنخلة أسماء وصفات نطقت بها العرب ، وكذلك الرطب تقول العرب لصغار النخل الجثيث والهراء والودى والاشاء•فاذا كانت قصيرة تتناولها اليد فهى القاعد ، فاذا صار لها جذع لا يتناول منه المتناول فهى جبارة ، فاذا ارتفعت عن ذلك فهى الرقلة ، والسعيدانه ، فاذا ارتفعت فهى باسقة فاذا تناهت فى الطول فهى سحوق ، واذا كانت على المساء فهى كارعة ومكرعة •

ويقال للطلع الكافور ، فاذا اخضر قبل أن يشتد سمته الجدال فاذا عظم فهو البسر وغير ذلك من الاسماء والصفات وقد وردت كل هذه الاسماء والصفات فى أشعارهم •

ودفع الاهتمام بالنخلة وثمرها كثير من اللغويين الى التأليف فيها ومن بين هؤلاء أبو عمرو الشيبانى ، وأبو زيد الانصارى ، والاصمعى ، وابن الاعرابى ، وأبو نصر أحمد بن حاتم ، وأبو عبد القاسم ابن سلام ، وأبو هلال العسكرى ، والاسكافى ، والثعالبى ، وابن سيده ، والفارسى ، وأبو حاتم السجستانى وضع الاخير كتابا فى النخلة تحدث عن امكانة النخلة ، ثم بين مواطن وجود النخل من الدنيا ، وخلو بلاد الشرك منها ، وأفرد قسما صدره بذكر النوى وأوصافه وأجزائه ومنافعه وطريقة زرعة وزمنه ، وانتقل الى حياة النخلة ، ومراحل نموها المختلفة ،

ونضج البسر وأمراضه ، وأنواع التمر وجنيه ومرابده وجماعات النخل ، ثم ختم الكتاب بالاخبار عن الاراضى التى تنبت فيها النخل(٧٠) .

كل هذا يدل على عظيم منفعتها لديهم وفائدتها عندهم ، سواء فى ذلك من لفت نظرهم اللون الخارجى أو التكوين الظاهرى ، فتناولوها بصورة مباشرة أو غير مباشرة أو من أسقطوا عليها مشاعرهم ، أو خاطبوها مخاطبة وجدانية ذاتية ، أو حتى من جعلها مكانا للقاء الحبيب يسترجع من خلالها ذكرياته الماضية .

الدكتور / حمدى عبد المجيد عبد الرحيم
مدرس الادب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(٧٠) مجلة المورد . وزارة الثقافة والاعلام مجلد ١٤ عدد (٣) ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ .